الزهراوي... رائد الجراحة

أدى الأطباء العرب دوراً مهماً في رقي البشرية وتطورها والتخفيف من آلامها ومعاناتها وأمراضها ، وأسهموا إسهاماً وافراً في وصول العلوم الطبية والصحية إلى المستوى الراقي الذي تشهده هذه الأيام .

وقد سجل هؤلاء الأطباء أسماؤهم بأحرف من نور في سجلات تاريخ العلم والكتب التي دوّنت تاريخ الطب والعلوم الصحية ، وما زالت أسماؤهم تطلق على المستشفيات الكبرى والجامعات والكليات وقاعات ومختبرات ومعاهد التدريس والبحث الطبي .

ويعزى الأمر في ذلك إلى ذلك التاريخ الحافل بالعطاء الذي قدمه كل منهم والكتب التي سطّرها والأبحاث والتجارب والخبرات المنقولة عنه ، والأدوات التي ابتكرها واستعملها خلال حياته العملية .

ولم تقتصر إسهامات هؤلاء الأطباء الأفذاذ على دراسات نظرية فقط ، بل تعدَّتْ ذلك إلى إجراء تجارب بارعة ؛ من أهمها : العمليات الجراحية التي اشتهروا بها وذاع صيتها في كل مكان ، وتلك الأدوية الناجعة التي كانوا يقدمونها للمرضى بعد أن ثبت فعاليتها وكفاءتها .

الأندلسي الحاذق :

ومن أشهر الأطباء العرب الذين ذاعت شهرتهم في البلاد العربية والإسلامية ، واعترف بفضلهم نصفة المؤرخين الأجانب الذين دوّنوا تاريخ العلم عبر الحضارات المختلفة ؛ الطبيب العربي أبو القاسم

الزهراوي الذي يعد أعظم الجراحين العرب على الإطلاق .

وأبو القاسم الزهراوي هو خلف بن عباس ، وقد ولد عام (٣٢٧هـ = ٩٣٨م) وتوفي عام (٤٠٤هـ = ١٠١٣م) في مدينة الزهراء الأندلسية التي كانت عامرة بالعلم .

ونشأ الزهراوي في تلك البلاد التي فتحها المسلمون ، ونهل العلوم من مدارسها المتميزة ، وبرع في أمور عدة ، لكن اهتمامه كان منصباً على الطب بشكل عام والجراحة بشكل خاص ، كما برع في العلوم الصيدلانية ، وكان حسن المشاهدة والتجارب في آن واحد .

أدرك الزهراوي عصري الخليفة عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني ، وكان طبيبهما ، وهو أول من نبغ في الجراحة بين العرب ، وأحد نوابغ الطب العربي الثلاثة الذين كانوا بمثابة المصابيح التي أضاءت منها وبها أوروبة وقناديلها في العلوم الطبية ، وهم : الرازي ، وابن سينا ، والزهراوي ، كما كان أول من استعمل ربط الشرايين لمنع النزف .

نجاحات مشهودة :

وكان الزهراوي أول من ابتكر طريقة دقيقة لقطع الشريان ثم ربطه بغرض علاج الصداع المزمن ، وأول من تمكن من ربط الأوعية الدموية في حالة الإصابة بالتمدد الوعائي (الأنيورزم) ، ومن أسف أنك إذا سألت أحد الطلبة الذين يدرسون الطب عن أول من قام بذلك ، لأجاب : إنه الجراح الإنكليزي جون هنتو .

ويشهد للزهراوي أيضاً بأنه أول من استخدم المحقن (وهو من ابتكاره) في التغذية الصناعية ، وهو أيضاً أول من كون فريقاً متكاملاً من الممرضات لمساعدته في مباشرة أمراض النساء والتوليد .

ويعترف المؤرخون بأن ذلك الطبيب الفذ كان أول من أوصى برفع

منطقتي الحوض والأرجل قبل إجراء عملية جراحية في الجزء الأسفل من الإنسان ، وهو القائل : إن كان المرض في أعلى البطن فيجعل رأس المريض وصدره أرفع من أسفل ، وينسب هذا القول خطأ للجراح الألماني فريدريك ترند لنبورغ .

ونجح الزهراوي في علاج الكثير من الأمراض الشائعة في عصره ؛ مثل : تشوهات الفم والفك والأسنان ، واستعمل في علاجها آلات جراحية مبتكرة ، مثل العقّافة والمبرد والكلاليب ، كما نجح في إجراء عملية شق القصبة الهوائية .

ويذكر المؤرخون أن الزهراوي نجح أيضاً في استئصال الأورام الليفية في الأغشية المخاطية وسرطان الثدي ، كما نجح في علاج الناسور الدمعي ، وكان يستعمل في علاجه المكواة المحدبة والمكواة المجوفة .

ومن العمليات الجراحية المشهورة لذلك الطبيب الأندلسي الحاذق نجاحه في علاج السل الناشئ في فقرات الظهر ، (وهذه العملية تنسب خطأ إلى الجراح الإنكليزي برسفال بوت) ، كما نجح في استحداث طرق مفيدة للتحايل على حصيات الكلى والمثانة والمجاري البولية وتفتيتها وإخراجها .

التصريف لمن عجز عن التأليف :

من أهم مؤلفات الزهراوي كتابه الفذ « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو كتاب جامع لأبواب الطب كلها ، وظل طوال خمسمئة عام عمدة المشتغلين بالجراحة في أوروبة ، ويشتمل الكتاب على ثلاثين مقالة جامعة للعلوم الطبية المعروفة حينذاك .

وتكلم الزهراوي في هذا الكتاب عن جراحة العين والأذن والفتق ، وعن تفتيت الحصى في المثانة ، وعن تعقيم الجراح ، وتشريح الأجسام

ميتة وحية ، وضمّن بعض فصول كتابه رسوماً لآلات جراحية ، يزيد عددها على مئتين .

وقسم الزهراوي هذه الموسوعة الطبية إلى ثلاثة أقسام : أحدها في الطب ، والثاني في الجراحة ، والثالث في الصيدلة .

ويتميز الكتاب بكثرة رسومه ووفرة أشكاله التي تصور الآلات التي كان يستعملها الزهراوي في جراحاته ، وأكثرها من ابتكاره ، وقد ترجم الكتاب إلى لغات عدة ، وفي عام ١٧٧٨م ظهرت أول ترجمة إنجليزية للجزء الخاص بالجراحة ، وفي عام ١٨٩٨م ظهرت الترجمة الفرنسية لهذا الجزء .

وللزهراوي مؤلف آخر مشهور هو كتابه « أعمار العقاقير المفردة ، والمركبة » ، ويتألف هذا الكتاب من مقدمة وعدة أبواب مقسمة إلى عدة فصول ، يختص كل منها بالحديث عن نوع معين من العقاقير من حيث تسميته وطريقة تحضيره وفوائده الطبية ، وما يميز هذا الكتاب أن الزهراوي فصل فيه أسماء النباتات والأعشاب الطبية بلغات كثيرة .

وتعدُّ المقالة الثلاثون من كتاب الزهراوي « التصريف » أشهر مقالات الكتاب ، وقد بحث فيها عمل اليد والصناعة الجراحية في أحوال الجبر والكسر والخلع والكي والفصد والجراحات ، وكانت هذه الصناعة متدنية متروكة تكاد تندرس ، سوى رسوم يسيرة باقية في كتب الأوائل ، فأحيا الزهراوي هذه الصناعة وهي رميمة ، لتقف وسط المهن الصحية الأخرى تنافسها وتنهض بها لخير النتائج والأفعال .

عمليات جراحية وتنبيهات مفيدة :

كان من الطبيعي أن تنال الجراحة الفكية الوجهية نصيباً كبيراً من اهتمامات الزهراوي ، وأن يخصص لها الصفحات الطوال لكي يعرض

فيها الحالات الجراحية الفكية التي تصدى لمعالجتها ، مع بيان التشخيص التفريقي لكل حالة ، وتوصياته العامة التي يعرضها ، وما يراه مناسباً لحصول البرء والشفاء العاجل .

في البداية ينبه كل طبيب يريد أن يتخصص في فرع الجراحة إلى ضرورة الاطلاع وقراءة الكثير من الكتب الطبية ، ثم التدرب الكافي حتى يكتسب الخبرة الضرورية التي تؤهله للقيام بالمداخلات الجراحية ، كما يوصيه بأن يتعرَّف بشكل جيد إلى الأدوات الجراحية اللازمة ، وأن لا يمنعه ذلك ـ إذا دعت الحاجة ـ إلى استنباط أدوات جراحية جديدة ، أو إدخال تحسينات على تلك المستخدمة ، إن كانت لا تفي بالغرض .

ويقدم الزهراوي نصيحة ثمينة للعاملين في المجال الطبي حين يقول : « إن صناعة الطب طويلة ، وينبغي لصاحبها أن يرتاض من قبل ذلك في علم التشريح ، حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئاتها ومزاجاتها واتصالها وانفصالها ، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها ، والعروق النوابض والسواكن ومواضع مخارجها » .

ويتبين من الملاحظات الشخصية التي يذكرها في كتبه أنه كان طبيباً مزاولاً وجراحاً عملياً ، فهو يذكر في إحدى المقالات أربع حالات جراحية شهدها بنفسه ، وكلها انتهت نهايات مؤسفة نتيجة جهل الأطباء الذين قاموا بمداخلاتهم الجراحية من غير مران كاف في التشريح ، ومن غير معرفة جيدة باستخدام الأدوات الجراحية .

الزهراوي في عيون المؤرخين :

أثنى عدد كبير من المؤرخين والعلماء على الزهراوي بسبب إبداعه وكتبه ، وما ورد عنه من تجارب جراحية ناجحة ، فقد وصفه سارتون بأنه أكبر جراحي الإسلام ، وقال عنه ابن أبي أصيبعة : كان الزهراوي طبيباً

فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج ، ومع أنه اشتهر بالجراحة خاصة إلا أنه جمع بين فروع الطب ، وكان ماهراً فيها جميعاً حتى صح فيه القول : هو أشهر الأطباء العرب الثلاثة ، صنواه : الرازي وابن سينا .

وترى المؤرخة الألمانية زيغريد هونكه أن الفضل يرجع للزهراوي في وضع أسس الجراحة الحديثة في أوروبة والسمو بهذا النوع من الطب بعد أن كان ينظر إليه في الغرب نظرة ازدراء .

أدوات دقيقة :

ابتكر الزهراوي أدوات طبية عديدة أسهمت في ذيوع شهرته ، وساعدته على إجراء عملياته الجراحية المختلفة ، ويبدو أن الحاجة الماسة إلى وجود مثل هذه الأدوات دفعته إلى إبداع هذه الآلات التي ما زالت موجودة في عدد من المتاحف العلمية ، ومدونة في الكتب الطبية .

ويلاحظ أن الزهراوي يعالج علم الجراحة على أساس كبير من المعرفة ، وبشيء كثير من التفصيل ، ومقالته في الجراحة تعد أول دراسة معقولة للموضوع مشروحة بصور للأدوات الجراحية التي كان يستخدمها ، فقد زود كتابه الجراحي بمئتي صورة توضيحية للأدوات التي تستخدم في الجراحة والشق على الأورام ، ومنها :

١ـ المدسات (Explorer) :

ذات الأحجام المختلفة التي تصنع من الحديد والفولاذ ، وهي أشبه ما تكون اليوم بإبرة البزل ، ويستخدم المدس لاستقصاء محتوى الكيسات أو الأورام .

٢ـ المسابير (probes) :

وهي ذات أحجام مختلفة ، وتستخدم لسبر النواسير والأورام ، وتصنع من النحاس أو الرصاص ، إذ إن الأخيرة يمكنها أن تنعطف حين استخدامها لاستقصاء النواسير .

٣ـ الصنانير (Hooks) :

وهي ذات حجوم مختلفة وأشكال عديدة ، ومنها ما يكون مزوداً بخطاف أو اثنين وربما ثلاثة ، وتستخدم لتعليق الأورام حين العمل على استئصالها .

٤ـ المشارط (Scalpels) :

لها أحجام مختلفة ، وتستخدم لشق الأورام وتسليخها .

٥ـ المخادع (Deceivers) :

وهي على شكل من أشكال المشارط ، تصنع من النحاس ، طرفها الواحد يشبه الملعقة ، ويتألف من طبقتين توضع بينهما شفرة مخفية .

٦ـ المباضع الصغيرة التي تُستَر ما بين الأصابع :

وتستخدم أثناء شق الأورام ، وتُستَر بين الأصابع ، بحيث لا يمكن للمريض مشاهدتها وهي ذات أحجام مختلفة .

وتدل بعض القرائن على أن الزهراوي هو الذي ابتكر معظم ما كان يستخدمه من أدوات جراحية ، ولئن كان بعضها معروفاً فهو قد أدخل عليه تحسينات وطوعه للاستعمال الطبي ، وجرب فاعليته بنفسه في العمل .

وقد شرح في كثير من الأحيان منفعة الأدوات الجراحية التي صوّر

أشكالها ، وبيَّن المادة التي تستعمل في صنعها وطريقة استخدامها ، واكتفى في بعض الأحيان بذكر اسم الأداة التي يتعين الاستعانة بها .

* * *